يكون المسلمون حينئذ أدنى حالا من اليهود ، اذ يزول استقلالهم الديني والسياسي وهم في فقر مدقع لا يستطيعون معه عملا ، ولا توجد بقعة في الارض تمثل استقلال الاسلام غير بلاد العرب . ولولا جعل جزيرة العرب تحت سيادة الدولة العثمانية بعضها بالاسم وبعضها بالفعل لما تسنى لها ان تجعل نفسها دولة الخلافة ويعترف لها الناس والدول بذلك

فجملة القول أن مصلحة المسلمين عامة أن تكون بلاد العرب قوية بنفسها ، غير محتاجة الى قوة من خارجها لحمايتها ، (وقد بينا ذلك مرارا) ولا خطر في ذلك على الدولة اذا كان فيها من جرائم الحياة ما يكفي لبقاء استقلالها ، وانما الخطر كل الخطر في إضعاف العرب وجعل بلاد العرب عالة على غيرها ، وستظهر الايام صدق هذا الكلام ، ونسأله تعالى أن يكون بما فيه عز الاسلام .

(حاشية) كتبنا هذه المقالة لجزء الشهر الماضي فلم يتيسر نشرها فيه . ثم جاءنا روتر بنبأ اظهار أمير مكة الشريف حسين الاستقلال في الحجاز وسنفصل القول فيه في الجزء التالي لهذا ان شاء الله

حكم الصيام

وجناية تاركيه على أنفسهم وعلى المسلمين والاسلام

الصيام عبادة روحية جسدية ، قد شرع لما فيه من المنافع الشخصية والاجتماعية ، فهو يروّض الاجساد ، كما تعطش الزروع وتضمر الجياد ، فيفني الرطوبات والموادّ الرواسب فيها ، التي تصلّب الشرايين وتعيق حركة الدم فيها ، ويعيد المعدة المصابة بالتمدّد الى تقلصها وتقبضها ، حتى قال بعض الاطباء ان صيام شهر واحد (كرمضان) يصلح ما أفسده التمدد طول العام ، ويمرن المرء على احتمال الجوع والعطش بالاختيار ، فيسهلان عليه اذا ألجأه اليهما الاضطرار ، في سفر أو سجن أو مجاعة أو قتال ، ويشعر الاغنياء المترفين بحاجة الفقراء المعوزين ، ويساوي بينهم في هذه العبادة وآثارها كما يساوي بينهم في سائر شعائر الدين

وهو فوق ذلك المربي الاعظم للارادة ، وانما يتفاضل أعاظم الرجال بما في الارادة من قوة العزيمة ، فلولاها لما استسهل صعب ، ولا ثبت شجاع في حرب ، ولما أقدم المصلحون على تغيير المنكرات ، ولاسيما مقاومة الظلم والاستبداد ، ولما ثبت عامل على عمل حتى يتقنه ، ولما صبر ذو مصاب على مصابه حتى يأمن خطره ، ولما احتفظ أمين بالامانة ، الا بقدر ما يخاف في الدنيا من عقوبة الخيانة ، وناهيك بأمانة الاعراض ، والمحافظة على شرف النساء

وهو فوق ذلك مراقبة الله عز وجل ، وتقرب اليه بما يرضه من تزكية النفس ، وتوجه الى الكمال الاعلى ، والحياة الروحية الفضلى ، حياة النبيين والصديقين ، بل الملائكة المقربين

ان الصائم المسلم هو الذي يحكم سلطان الارادة بقانون الايمان على هوى النفس فيمنعها من التمتع بأعظم الشهوات شأنا عندها ، فينال منه الجوع والطعام بين يديه ، ويبرح به الظمأ والماء البارد أمام عينيه ، و يشتد شوقه الى ملامسة زوجه وهي منه على طرف الثمام وحبل الذراع ، فيعرض عن كل ذلك ويتركه بوازع الايمان ، ابتغاء لمرضاة الله تعالى وتحصيلا للفوائد التي شرع لها الصيام

ألم تر أن الذي يربي ارادته ويحكمها في أشد شهواته وأقواها مدة شهر كامل في كل عام على الاقل جدير بأن لا تنازعه نفسه أكل شيء من أموال الناس بالباطل ولا العبث بشيء من أعراضهم ؟ أو ليس الذي يقدر على ترك أعظم ضروريات الحياة مما أحل الله له وقرب منه متناوله يكون أقدر على ترك ما حرم الله عليه من جنسها ومما هو أدنى منها ، وأجدر بأن يغلب هوى النفس الذي يغريه بها ؟ بلى ! وإن من الامثال الاسلامية المشهورة في بعض الاقطار « ان الذي يزكي لا يسرق » وهذا أمر معقول كسابقه ، فان الذي يخرج المال من جيبه أو صندوقه طائعا مختارا ويؤتيه الفقراء والمساكين ويضعه في غير ذلك من المصارف الشرعية لوجه الله وابتغاء مرضاته بنفع عباده — جدير بأن لا يعصي الله تعالى بتكلف سرقة مال غيره وهو يعلم أن ذلك سبب لسخط الله تعالى ، ولو كان لا يبالي بسخط الله ولا برضوانه بل يؤثر عليه حب المال لحفظ ماله في صندوقه ولم يخرج زكاته فذلك أسهل من إحراز المال بالسرقة

علل الله تعالى فرض الصيام علينا ، بأنه هو الذي يمدنا ويؤهلنا للتقوى ، فقال (كُتِبَ عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) وانما التقوى ملكة يقدر صاحبها بوازعها النفسي على اتقاء كل ما يدنس نفسه ويدسيها من ترك واجب ، أو اقتراف محظور ، ولذلك قالوا انها عبارة عن القيام بالواجبات وترك المحرمات ، وهذه الملكة كسائر الملكات ، تكتسب بالاعمال النفسية والبدنية التي يقوى بها سلطان الارادة على نزعات الاهواء كما سبق القول . وقد فطن لهذا بعض حكماء الغرب فقال في كتاب صنفه في (تربية الارادة) انه لا مربي للارادة كالصيام ، ولأجل هذا شرع في جميع الاديان

ان أحق الناس بتحصيل هذه الملكة و بسائر فوائد الصيام الروحية والاجتماعية والجسدية من جمعوا بين حكم الله وحكمته فيه ورعوا ذلك حق رعايته ، فالاسلام علم وتربية ، بنيا على أساس الحكمة والفلسفة ، وذلك نص قوله تعالى (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون) وقد يستفيد كثير من الناس حكمة العبادة ويجنون ثمرتها ، وان لم يتلقوا بالتعليم أن ذلك هو المصلحة التي شرعت لاجلها ، كما يستفيد بعض الناس من شيء يأكله أو يشربه ، فيكون من حيث لا يدري شفاء من مرض ألم به ، أولئك هم الذين أخلصوا دينهم لله فكان لهم من العلم بكل عبادة انها ترضي الله تعالى وان تركها يؤدي الى سخطه واستحقاق عذابه

ومن الناس من يؤدي العمل تقليدا ومجاراة لمن نشأ فيهم فيكون عادة له كسائر العادات الشخصية والاجتماعية ، لا ينوي به قربة ، ولا يشعر له بفائدة ، ولا يفكر في حكمة الشارع فيه ، فلا يكون لصيامه أثر كبير في عباداته ولا معاملاته ولا عاداته ، قد يصوم ولا يصلي ، وقد يصوم ويصلي وهو مصر على المعاصي ، فهو الذي يصدق على صيامه ما قاله بعض الاوربيين في تعريف الصيام ، من أنه عبارة عن تغيير مواعيد الطعام ، بجعلها في الليل بدلا من النهار ، وانما كمال الصيام بجعله جنة ووقاية من جميع الآثام ، قال صلى الله عليه وسلم « الصيام جُنَّة فاذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب فان شاتمه أحد أو قاتله فليقل اني صائم اني صائم » رواه

الشيخان في الصحيحين وأصحاب السنن الاربعة. والرفث صريح الكلام في الوقاع أو ما يتحدث به الزوجان في تلك الحال، والصخب الجلبة والصياح ، فاذا كان مثل هذا مما يمنع في الصيام، فما شأن اقتراف كبائر الآثام ؟ على أن مثل هذا الصائم خير من تارك الصيام ولاسيما المجاهر به ، فاذا كان مثله كمن يبني قصرا ويهدم مصرا، فان مثل تاركي الصيام من امثاله الفساق كمثل من يهدمون القصور والامصار

***

يترك الصيام في هذه البلاد أناس كثيرون من طبقتين أو ثلاث طبقات ، تتفق وتختلف في بعض الاعمال والصفات : طبقة تحوت الغوغاء الارذلين ؛ وطبقة أسرى الشهوات المترفين، وطبقة أدعياء المدنية المقلدين، فأما أولئك التحوت السفهاء فانهم لا يشعرون بقيمة لانفسهم يشاركون بها سائر طبقات الامة في شعائرهم الدينية، دع ما هو أرقى من ذلك كالشعور بما يجب من شكر رب العالمين الرحمن الرحيم والتقرب اليه والاستعداد لرضوان الاكبر في دار الكرامة عنده ، وغاية ما ورثوه من تقاليد الاديان التي كان عليها آباؤهم الاولون والآخرون تعظيم بعض المرتى ذوي الاضرحة التي اتخذت سنة الدين بتشريف بنائها ، وجعلها مساجد يصلى اليها ويطاف بها ، وبناء القباب عليها — واحتفالات الموالد التي هي أعياد ومواسم يحشر الناس اليها بجوار تلك القباب ، وزيارة الجماهير للمقابر في ليالي الاعياد وجمع رجب وأيام أخرى من السنة ، يرحل فيها الى القرافات النساء والرجال والاطفال ، مشاة حفاة وركبانا على الحمير والجمال ، وما في ذلك من المنكرات الكثيرة المعروفة

وأما هؤلاء المترفون (فمنهم) ملاحدة المتفرنجين الذين هم شرعاء هذه الامة من كل عدو لها (ومنهم) أسرى الشهوات الذين ليس لهم من قوة الارادة ما يقدرون به على مغالبة الهوى وعصيان داعي اللذة ، أو حبس النفس على عمل شاق، وهم أشد الناس حاجة الى الصيام ، فان هذا الافراط في الترف يضعف البدن كما يضعف النفس . واذا كثر هؤلاء في أمة فقدت الاستعداد لدفع الاعداء عنها ، وللقيام بالاعمال المتعبة التي ترقي بها الامم والشعوب عليها، وقضي عليها أن تكون مستعبدة لغيرها ، وأي عار على الفتى الجذع، أو الكهل والشيخ الذي لم يدركه الهرم، اكبر من عار

الاعتراف بعدم الطاقة على احتمال الجوع والعطش بضع عشرة ساعة يعدُّ له بعدها الشراب المبرد وألوان الطعام الفاخرة؟ أيها الجذع الناشئ، أيها الكهل القارح، أولى لك فأولى، وغير هذا كان بك أولى، كان أولى بك أيها الفتى أن تفخر بالتربية على صفات الرجولية، واعتياد القشف الاختياري في المعيشة، ومنه أن لا تسرف في النعيم المباح في ليالي رمضان، وأن تصوم من كل شهر عدة أيام، كان أولى بك أيها الكهل أن تكون قدوة صالحة لولدك وأولاد المسلمين، في المحافظة على شعائر الدين، وعلى الآداب والاعمال، التي يبلغون بها درجة الكمال، وأهمها ركوب الصعب، واكتساب ملكة الصبر، وتوطين النفس على مصارعة الحوادث، ومقارعة الكوارث، ألا وان الصيام جد الصيام أول مقدماتها، وأيسر وسائلها

وأما أدعياء المدنية المقلدون فهم الذين يفطرون جهرا ليقول فيهم غير المسلمين والمنافقون من المسلمين انهم « متمدنون » وهذه الطبقة أخسّ الطبقات فلا ينتحل لها عذر ولا يوجه اليها برهان.

عذر الملحد المارق عند نفسه في ترك الصيام أنه فقد الباعث الديني، ولم يترجح عنده باعث تهذيبي، وعذر المترف الشهواني عند نفسه، عجزه عن كبح جماح لذاته، لتحكم الهوى فيها، وضعف الوازع الديني عنها، والجهول السافل من نحوت الناس له عذر هذين الفريقين وعذر آخر وراءهما — وهو انه لا يخطر في باله ولا يصل علمه الى ما يعلمه كثير من أفرادهما من معنى كون الصيام ركنا للدين الذي ينسب اليه، وشعارا للامة التي هو منها، وان العاقل الذي يرى لنفسه قيمة في الوجود يرى شرفه بشرفها، وذله بهانتها، وانه مطالب دينا وعقلا بحقوق لها عليه، وان دين الامة من مقوّمات وجودها، فمن فاته الايمان الباعث على اقامة أركانه لاجل سعادة الآخرة، لم يسقط عنه احترام شعائره التي هي أقوى روابط الامة؟ فبهذا العلم يؤاخذ ويطالب كل من أوتي نصيبا منه، وترتفع المؤاخذة عمن كان نصيبه منه الجهل المطلق حتى ان نفسه لا تتوجه الى طلبه، ومنهم من يعتذر بأن الصيام يضره وان كانوا أصحاء الاجسام، بترك ما اعتادوا من النظام في مواعيد الطعام، والصواب ان ما يتوهمون من الضرر في ذلك هو عين النفع، لان التزام تلك العادات أضعف أبدانهم

وأنفسهم ، حتى صار تغييرها يؤلمهم أو يضجرهم ، وانما هذا الالم والضجر عرضان لمرض الترف ، والصيام علاج له لا « مضاعفة »

اذا صح أن يكون في الالحاد عذر للملحد ، وفي ضعف الارادة عذر للمترف ، وفي تغيير العادة ايلام للمهتهف ، فياليت شعري بم يعذر نفسه أو يعتذر عنها من يجاهر منهم بالفطر ؟ المجاهرة بالذنب شر من ارتكاب الذنب ، لان ارتكابه سرا يجعل ضرره قاصرا على من اقترفه ، وأما المجاهرة به فضررها يتعدى المذنب الى غيره ، لانه يكون قدوة سيئة لمن كان مستعدا لاقتراف ذلك الذنب تجرئه على اقترافه . ولان في الجهر به اذا كان من الشعائر المالية — كالصيام — احتقارا للملة والامة التي ينتسب المفطر اليها ، واضعافا لرابطة قوية من الروابط التي تمتاز بها الامة على غيرها

ها هنا يضحك القارئ من هؤلاء الملحدين ، لا تضحكوا الا على أنفسكم بل ابكوا عليها ان كنتم تعقلون : يقولون ان الملحد ليس من أهل الملة ولا من أفراد الامة فيرمى بهذا اللوم ويطالب بالاعتذار عن عمل لا يراه واجبا عليه ، وانه يعد الجهر بالافطار في رمضان من الشجاعة الادبية والاسرار به من الضعف والنفاق . وتقول : كيف يصدق هذا الكلام على ملاحدة بلادنا وكلهم منافقون يدعون الاسلام ويلتزمون من احكامه وشعائره وعادات أهله ما لا ينافي أهواءهم ، ولا يعارض شهواتهم ، كالاحكام والشعائر وكذا العادات المتعلقة بالزواج والموت والاعياد ، ويخضعون لشريعته في أحكام الزواج والارث ، فاذا ادعى أحدمنهم الشجاعة المعنوية بهتك شعار الصيام ، فقل له كذبت في دعواك ، فان كنت شجاعا فصرح على رءوس الاشهاد بالردة عن الاسلام واترك كل ماهو اسلامي ، ولا تتزوج نساء المسلمين ولا تأكل ترائهم ، ولا تتولّ الاعمال والوظائف الخاصة بهم بدعوى أنك منهم . وأما اخفاء معصية الافطار فليست مع صحة العقيدة من النفاق ، بل من اخفاء العيوب والعورات

قد يقول بعضهم ان الاسلام جنسية اجتماعية كجنسية اللغة وجنسية النسب ، وان العقائد الدينية والعبادات البدنية من الشؤون الشخصية التي يجب ان يكون الناس أحرارا فيها ، ولا ينبغي ان يتوقف عليها تحقق الجنسية بعد ان ينالها صاحبها بالوراثة أو بتسمية نفسه مسلما

ونحن نقول أن هذا الكلام مغالطة بديهية البطلان فان الاسلام في الحقيقة دين وهو جنسية لمن يدينون الله به ولو في الظاهر كاقامة أركانه من صلاة وصيام وزكاة وحج وتحليل حلاله وتحريم حرامه ، فهو من حيث هو دين لا تحقق له الا بصحة العقيدة وما يتبعها من الاعمال ، ومن حيث هو جنسية يتحقق بالتزام شعائره وأحكامه الظاهرة الا ما يقع من الاخلال بها شذوذا كما كان المنافقون يعملون في الصدر الاول . فمن لا يؤمن بما جاء رسوله ولا يقيم شيئا من أركانه فلا حظ له من جنسيته ، فكيف اذا كان مع هذا مجاهرا بهدم هـذه الاركان بلا خوف من الله ولا احترام لاهل هذه الجنسية .

على أن كل منتم الى جنس يجب عليه ان يعد جميع من يشاركونه فيها اخوانا له ، وان يحترم كل ما يشترك فيه معهم من مقومات الجنسية ومشخصاتها ، والا كان عاقا لها ، مستحقا للطرد والابعاد عنها ، بدلا من مشاركة أهلها في منافعها الصورية والمعنوية ، وهؤلاء المجاهرون بالفطر في رمضان لا يشعرون بمعنى الاخوة الاسلامية العامة ، ولا يقومون بشيء من حقوقها ، كما انهم لا يحترمون الشعائر والاعمال التي لا تعرف الجنسية الاسلامية الا بها .

الحق أقول : ان لبعض الذين يفطرون في رمضان عذرا طبيا ، ولا يحمد عذر طبي الا ان يكون شرعيا ، (كعذر المريض والمسافر والعاجز عن الصيام لهرم مثلا) ولكن لا عذر لاحد في الجهر بالافطار ، لانه احتقار للاسلام وإهانة لاهله ، لا تصدر اختيارا الا من عدو له ولهم ، أو ممن لا شعور له بمعنى الامة والملة وشرفهما كبعض الكناسين والزبالين — لا كلهم — وكم يوجد من أمثالهم في المتعلمين المتفرنجين الذين يظنون انهم ممتازون في الامة بارتقائهم في الشؤون الاجتماعية ، وانهم يشعرون من ذلك بما لا يشعر به الجمهور ، وان الخير للامة ان تكون مثلهم في ترك أركان الدين وامتهان شعائره والاهتمام بالتمتع بالشهوات ، وحسبهم شرفا وارتقاء ما يتوهمون من عد غير المسلمين لهم من « المتمدنين » أو « المتنورين » ! ويا شقاء أمة يكثر فيها أمثال هؤلاء المفتونين ، فانها لا ترتقي بهم الا الى أسفل سافلين